الجلجلة والصلب . عندها يصبح كل طفل مسيحا، ويعاني الشاعر آلام الطفولة المعذبة، وهذا اقسى ألوان العذاب ، لأن الطفولة تجسد البراءة والايمان ؛ فيقول :

بيني وبينك برهة في زي مشنقة
ولم اشنق .. فعدت بلا جبين
بيني وبين البرهة امتدت عصور ،
والمسيح
يلج الصليب ، ولا مسيح بلا صليب
أي طفل ليس في وطني مسيح(٦٠)!

ذلك ان الشاعر عانى آلام الطفولة المنفية المعذبة ، عندما وضعت مأساة عام ١٩٤٨ حدا لطفولته الهادئة . يوم غادر موطنه لاجئا الى لبنان ، قبل ان « يتسلل » عائدا الى الوطن ، فيصبح لاجئا فلسطينيا في فلسطين . ولم تعد طفولة الشاعر مجرد مرحلة من مراحل حياته ، لكنها ، على حد قوله « كانت وطني »(٦١). لان سعادة الطفولة ما قبل المأساة اتحدت في لاوعي الشاعر مع صورة الوطن ، عندما كان ملكا لابنائه قبل ان يغتصبه الاعداء .

أفاد محمود درويش من تجربته التي عاشها في العالم العربي في قصيدة الديوان الاخيرة « سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا » ، بشكل خاص . وتمثل هذه القصيدة مأساة الفلسطيني التائه الذي يعاني آلام الرحيل والاغتراب ، حيث استعار الشاعر قصة الشاب الفلسطيني سرحان بشاره سرحان ، الذي اغتال روبرت كندي ، احد المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة الاميركية — الذي كان يخوض معركته الانتخابية تحت شعار دعم دولة اسرائيل بالمال والسلاح — في الخامس من حزيران عام ١٩٦٨ . وقد اختار سرحان هذا اليوم بالذات ليؤكد للعالم انه فدائي ينتقم لآلاف الضحايا من ابنـاء شعبه الفلسطيني ، الذين قتلهم الصهاينة بالاسلحة الاميركية . واصبح سرحان في قصيدة محمود درويش رمزا للشعب الفلسطيني الذي يعاني آلام المنفى ، وعندما حمل السلاح لينتقم لشهدائه ويستعيد بلاده اتهم بأنه قاتل . ونلاحظ في القصيدة ان سرحان ولد وتربى في مطبخ سفينة . وتظل السفينة تمضي وتبتعد به عن وطن لا يعرفه . ويعيش سرحان آلام اللاانتماء : فهو معلق على خشبة بين البحر والسماء ، يبحث عن هويته ومعنى وجـــوده :

ولكن سرحان
قطرة دم تفتش عن جبهة نزفتها .. وسرحان قطرة دم
تفتش عن جثة نسيتها . واين(٦٢)؟

ويصور محمود درويش خيبة أمله في الواقع العربي بعد أن عايش هذا الواقع لمدة سنة، وعلم ان المجتمع العربي ما زال مليئا بالمناهج القبلية . فباتت فلسطين ناقة يمتطيها ليصل الى السلطة ويحتفظ بالمراكز ، ولم تكن القدس سوى منبر للخطب الرنانة التي تحول الهزيمة انتصارا . ويتخذ اسم القدس وسيلة لبث السوداوية او اللهو والشماتة:

وما القدس والمدن الضائعه
سوى ناقة تمتطيها البداوة
الى السلطة الجائعة
وما القدس والمدن الضائعه
سوى منبر للخطابه
ومستودع للكآبه
وما القدس الا زجاجة خمر وصندوق تبغ(٦٣)...